واضع علوم البلاغة

رأى ابن خلدون فيه

للأستاذ على محمد حسن العمارى

تهيأ للبحث التاريخى أن يهتدى لمولد كثير من العلوم ، وأن يتعرف على واضعيها ؛ فهو يعين أول من تكلم فى النحو ، ويؤكد أن الخليل بن أحمد الفراهيدى هو واضع علم العروض ، وأن أبا معاذ الهراء أول من أفرد الصرف بالتأليف ... وهكذا . ولكن أصحاب تاريخ العلوم لا يتفقون على رأى فى واضع علوم البلاغة ، ولعل منشأ ذلك كثرة الكاتبين فيها فى أزمنة متطاولة ، كما أن تأخر التقعيد فيها وظهورها أول الأمر فى مظهر النقد الأدبى جعل الأنظار تتجه وجهات مختلفة ، وسنقدم بين يدى بحثنا كلمة عن نشأتها :—

تكاد تتفق كلمة العلماء على أن القول فى البيان كان مبكراً ؛ فالخليل المتوفى سنة ١٧٠ هـ تحدث عن الاستهلال المجازى والجناس والمطابقة ، وتلميذه سيبويه المتوفى سنة ١٧٧ هـ تكلم عن التقديم والتأخير ومجاز الحذف ؛ ثم استفاضت هذه البحوث فيما كتبه الجاحظ (٢٥٥) وأبو هلال (٣٩٥) وابن رشيق (٤٤٧) فكتبوا كتابات ذات بال ولكنها كانت مختلطة بالمباحث الأدبية. فلما جاء عبد القاهر الجرجانى (٤٧٤) وضع كتابين (أسرار البلاغة) و (دائل الإعجاز) وتحدث فى الأول بإفاضة عن مباحث علم البيان ، ومال قليلا إلى بعض مباحث البديع ، وخص الثانى بمباحث علم المعانى . وهذان الكتابان من أحسن ما كتب فى هذين العلمين إلى يوم الناس هذا ؛ فشواهدهما كثيرة ، وأسلوبهما من أقوى الأساليب وأنصعها ، وفيهما ميل واضح إلى التقعيد والتقنين . ونستطيع أن نقول أن مباحث العلوم الثلاثة قد تميزت بعد عبد القاهر ، فابن المعتز (٢٩٦) ألف كتاباً فى البديع ذكر فيه سبعة عشر نوعاً منها مباحث علم البيان ، وأبو هلال ذكر خمسة وثلاثين نوعاً من البديع وبذلك أصبح لهذا العلم كيان مستقل ، وأما البيان فقد أفاض فيه عبد القاهر فكان صاحبه ، وكذلك علم المعانى إذا أضفنا ما كتبه العسكرى ، ولو أن علوم البلاغة وصلت إلينا على الحال التى كانت عليها فى عهد عبد القاهر لكانت ذات غناء وجدوى ، ولكنها مُنيت بالقيود والأغلال فظلت سجينة فيها حقباً طوالا ، وكان ذلك على يد العالم الجليل أبى يعقوب يوسف بن أبى بكر بن محمد السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ فوضع كتابه « مفتاح العلوم » وكان صاحب فلسفة فأخضع علم البيان لذهنيته الفلسفية ، وقد نظر فيما كتب السلف من بحوث فنظمها فى قواعد جافة كقواعد القانون ، ومنذ ذلك الحين ودراسة البلاغة لا تعدو هذه الدائرة التى صب فيها السكاكى مباحث البيان والمعانى والبديع ، وكذلك التأليف لم يعد أن يكون اختصاراً أو شرحاً أو تحشية على المفتاح أو ما تفرع منه . ونستطيع أن نستثنى بعض كتب قليلة كالطراز فإن صاحبه لم يطلع على شىء مما كتبه السكاكى فيما يحدثنا عن نفسه .

نستطيع أن نتبين بعد هذا من غير كبير عناء أن صاحب علمى المعانى والبيان هو عبد القاهر وأن صاحب البديع هو عبدالله بن المعتز ، وقد يعيننا على ذلك أمران :

(١) ما كتبه العلوى فى مقدمة كتابه الطراز « وأول من أسس من هذا الفن قواعده وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ، ورتب أفانينه الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبدالقاهر الجرجانى »

(٢) ما كتبه السكاكى فى فصل أخير من كتابه بعد أن تحدث عن عمله فى علمى المعانى والبيان قال « هذا ما أمكن تقريره من كلام السلف رحمهم الله فى هذين الأصلين ، ومن ترتيب الأنواع فيهما ، وتذييلها بما كان يليق بها ، وتطبيق البعض منها بالبعض ، وتوفية كل ذلك حقه على موجب مقتضى الصناعة » ثم قال « وعلماء هذا الفن — وقليل ما هم — كانوا فى اختراعه ، واستخراج أصوله ، وتمهيد قواعدها ، وإحكام أبوابها وفصولها ، والنظر فى تفاريعها ، واستقراء الأمثلة اللائقة بها ، وتلقطها من حيث يجب تلقطها ، فعلوا ما وفت به القدرة البشرية إذ ذاك »[1] وإذا أردنا أن نعرف من هم السلف الذين قصدهم السكاكى هدانا البحث فى كتابه إلى أن عبد القاهر هو المقدم فيهم ، وعليه اتكأ السكاكى فهو يصرح فى موضع من كتابه بفضل عبد القاهر

(١) المفتاح ص ١٧٠ الطبعة اليمنية .

فيقول عند اختلافهم على أن الاستعارة مجاز عقلي أو لغوي « ومدار ترديد الإمام عبد القاهر قدس الله روحه لهذا النوع بين اللغوي تارة وبين العقلي أخرى على هذين الوجهين جزاه الله أفضل الجزاء فهو الذي لا يزال ينور القلوب في مستودعات لطائف نظره لا يألو تعليما وإرشادا »[1] وهو يترسم خطاه في مواضع كثيرة حتى لينقل سطوراً من كتبه بنصها ، وأن تأثره به لبعيد المدى وسنفرد هذا ببحث خاص إن شاء الله .

كل ذلك لا يدع عندنا مجالا للشك في أن عبدالقاهر صاحب الفن وممهد قواعده ومهذب مسائله . لكن ابن خلدون هذا الألمعي النابغة جاء برأي في مقدمته أضل بعض الكاتبين بعده ، وهو رأي ذو خطر لأنه يسلب الإمام الجرجاني كل أثر في وضع هذه العلوم قال : « وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان ، وهو اسم الصنف الثاني ، لأن الأقدمين أول من تكلموا فيه ، ثم تلاحقت مسائل الفن واحدة بعد أخرى ، وكتب جعفر ابن يحيى والجاحظ وقدامة وأمثالهم إملاءات غير وافية فيها ، ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن لخص السكاكي زبدته وهذب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب ، وألف كتابه المفتاح في النحو والصرف والتصريف والبيان[2] » .

ولننظر أولا فيما فعله السكاكي حتى نكون على بينة . نظر فيما كتبه المتقدمون فوجد أبحاثاً في النظم والتشبيه والاستعارة وغيرها من مباحث الفن ، ولكنها لا ترجع إلى ضوابط وقوانين ، فكان كل همه أن يقعّد هذه المسائل ويخترع لها الاصطلاحات العلمية ، وهذا المسلك واضح كل الوضوح في عمل السكاكي وفي قوله ، فهو فيما نقلنا آنفاً يقول : « وتوفية كل ذلك حقه على موجب مقتضى الصناعة » . ويقول في موضع آخر : « ثم ما لهذا العلم من الشرف الظاهر ، والفضل الباهر ، لا ترى علماً اقي من الضيم ما لقي ، ولا منى من سوم الخسف بما منى ، أين الذي مهد له قواعد ورتب له شواهد ، وبين له حدوداً يرجع إليها ، وعين له رسوماً يعرج عليها ، ووضع له أصولا وقوانين ، وجمع له حججاً وبراهين وشمر لضبط متفرقاته ذيله ، واستنهض في استخلاصها من الأيدي رجله وخيله[3] » .

(١) ص ١٥٧ الطبعة السابقة (٢) ص ٥٥٢ طبعته التجارية
(٣) المفتاح ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

ومع أن صدر هذا الكلام متابعة للإمام عبد القاهر في حديثه عن الضيم الذي لحق هذه العلوم — ولا يزال يلحقها إلى عصرنا هذا — إلا أن آخره يدلنا على النهج الذي سلكه السكاكي . وقد تدهش حين تسأل السكاكي ما هي هذه المتفرقات التي لم يشمر لها أحد ذيله ؟ فيجيبك بأنها علم أصول الفقه ، وعلم الحد ، وعلم الاستدلال . وفي ذلك يقول : « علم تراه أيادي سبا ، فجزء حوته الدبور ، وجزء حوته الصبا ، انظر باب التحديد — فإنه جزء منه — في أيدي من هو ؟ انظر باب الاستدلال فإنه جزء منه في أيدي من هو ؟ بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه من أي علم هي ؟ ومن يتولاها ؟ »[1] .

ولا عجب ، فهو يتحدث في كتابه عن تكملة علم المعاني ، فيذكر باب الحد وباب الاستدلال ، وفي ذلك يقول « الكلام الى تكملة علم المعاني وهي تتبع خواص تراكيب الكلام في الاستدلال . ولولا كمال الحاجة إلى هذا الجزء من علم المعاني ، وعظم الانتفاع به لما اقتضانا الرأي أن نرخي عنان القلم فيه . اعلم أن الكلام في الاستدلال يستدعي تقديم الكلام في الحد »[2] ولكنه يشعر أن صاحب علم المعاني لا حاجة به إلى هذا المنطق ، وأنه لن يتقبل كلامه بالقبول فيقول « وكأني بكلامي هذا — وأين أنت من تحققه ؟ — أعالج من تصديقك به ، ويقينك لديه باباً مقفلا ، لا يهجس في ضميرك سوى هاجس دبيبه ، فعل النفس اليقظى إذا أحست بنبأ من وراء حجاب »[3] . ونخلص من كل هذا إلى أن السكاكي رأى علوم البلاغة غير مضبوطة فضبطها ومتفرقة — في نظره — فجمعها ، وإن كان لم يلحق بكتابه علم أصول الفقه ، والنظرة الفاحصة تدلنا على أن ابن خلدون لم يرد برأيه أن يعطي السكاكي أكثر من هذا ، فإنه أجمل القول في أول الفصل ، وتحدث عن رءوس مسائل علوم البلاغة ثم قال :—

« وترتيب الأبواب على ما ذكرته آنفاً » وهو إنما تحدث عن تمييز هذه العلوم وضبطها ، وحينئذ تسقط حجة الذين يستدلون برأي ابن خلدون ، فلا وجه له ، ولا حجة فيه غير ما ذكرنا ، لكنهم يقولون إن إهماله لعبد القاهر يدل على أنه لا يراه واضعاً لعلوم البلاغة وإلا لذكره مع أصحابه . وهل يراه دون

(١) المفتاح ص ١٧٨ ، ١٧٩ .
(٢ و٣) ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

جعفر وقدامة والجاحظ فى أمر هذا الفن ؟ والاجابة عن هذا افترض أن ابن خلدون لم يطلع على جهود عبد القاهر فى علم البيان والمعانى ويؤكد هذا الافتراض عندى أمور :—

١ — أن كثيراً من أصحاب التراجم لم يترجموا له ؛ فابن خلكان لم يذكره فى كتابه « وفيات الأعيان » وياقوت لم يترجم له فى معجم الأدباء مع أنه ترجم لنكرات كثيرة ، بل لم يذكره فى كتابه إلا عرضاً عندما ترجم لمحمد بن الحسين الفارسى فقال « ثم استوطن جرجان وقرأ عليه أهلها منهم عبد القاهر وليس له أستاذاً سواه »[1]. وكذلك لم يذكره فى معجم البلدان مع أنه نزل جرجان وذكر جماعة من جلة علمائها .

٢ — والذين ترجموا له كالحافظ الذهبى فى تاريخه « دول الإسلام » وكالسبكى فى طبقات الشافعية الكبرى » وكصاحب « شذرات الذهب » وصاحب « فوات الوفيات » والسيوطى فى « بغية الوعاة » لم يذكروا أنه واضع هذه العلوم ، بل لم يذكروا كتابيه فى البلاغة ، ولم يشيروا إلى شىء فيهما .

٣ — ويحيى بن حمزة بن على العلوى أمير المؤمنين صاحب كتاب الطراز (٦٦٩ — ٧٤٩ هـ) — وهو الذى ذكر أن عبد القاهر صاحب هذا الفن — لم يطلع على كتابيه وفى ذلك يقول « وله من المصنفات فيه كتابان أحدهما لقبه بدلائل الإعجاز والآخر لقبه بأسرار البلاغة ، ولم أقف على شىء منهما مع شغفى بحبهما ، وشدة إعجابى بهما ألا ما نقله العلماء فى تعاليقهم منهما » وهو بعد قريب عهد بعبد القاهر ، وفى مكنته أن يبعث من يجوب الآفاق يبغيهما له .

ويبدو أن الكتابين كانت لهما شهرة فى بلاد المشرق ، ومن ذلك أمكن السكاكى والزمخشرى وهما من جرجان ، أن يلتقفا بهما ، كما أمكن سعد الدين التفتازانى وغيره من علماء البلاغة المشارقة أن يتتلمذوا على عبد القاهر فى البلاغة ، أما ابن خلدون فقد انتهى به المطاف إلى مصر ولم يجاوزها إلى المشرق إلا فى رحلته إلى تيمورلنك وهى رحلة قصيرة ولذلك لم يتهيأ له أن يطلع عليهما ، وقد يقال أنه رأى شيئاً منهما فى كتب العلماء ولا سيما الإيضاح للخطيب القزوينى فقد أشاد به ولكنا نقول أنه لم يكن يعرف حقيقتهما ، ولو عرف لكان له مسلك آخر فى تأريخ علم البيان .

ولعل السر فى خمول الكتابين أن الأمام لم يخرج من بلده على عادة العلماء فى الرحلة ، كما كان لشهرته « بالنحوى » أثر فى ذلك ، فقد طغى نحوه الواسع العريض على بلاغته .

وإنا لنأخذ على ابن خلدون أن نسب تهذيب البديع إلى السكاكى ، والحق الذى لا يمارى فيه أن المصطلحات البديعية عرفت فى كتاب ابن المعتز كما عرف كثير منها فى كتاب « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى .

على محمد حسن العمارى
المدرس بمعهد القاهرة الثانوى

(١) ج ١٨ ص ١٨٧ ط . دار المأمون .

وزارة المعارف العمومية

الادارة العامة للتعليم الفنى والزراعى

إعـــلان

قررت الوزارة إنشاء مدرسة زراعية متوسطة بدمنهور وستفتح للدراسة إبتداء من العام الدراسى ٤٧ / ٤٨ — يقبل بها الطلبة الحاصلون على شهادة أتمام الدراسة الابتدائية وشروط القبول بها كشروط القبـــول بالمدارس الزراعية المتوسطة المعلن عنها بالوقائع المصرية وتقدم طلبات الالحاق بمدرسة الزراعة المتوسطة بدمنهور .

٧٧٥٩